ملف لفلسطين وليس عنها

مالك الريماوي

فلسطين، النكبة، الذاكرة، التربية، مقولات وإن تباعدت عن بعضها في صفحات المعجم، فإنها ذات جذر واحد في الواقع الفلسطيني، فكما أن النكبة مثلت القطع في الذاكرة الفلسطينية؛ الحدث الذي أفضي إلى "ما قبل" و"ما بعد"، وهو حدث شطر الذاكرة طبقاً لـ "بيار نورا"، فإن فلسطين أصبحت بؤرة الذاكرة والهوية والتربية للفلسطينيين خاصة، والعرب وأحرار العالم عامة.

ولذلك، فإن الكتابة ضمن هذا المنظور هي كتابة من أجل فلسطين لا عنها فقط، من أجل التأسيس لتربية تكشف "معضلة تغييب فلسطين" وتتحداها وتعمل على تصحيحها، فالتربية كما نفهمها تربية تتدخل في الحياة "للكشف عن أوضاع الاضطهاد وتحدي منطقها وتصحيحها"، ما يجعلها جزءاً من تعميق مقاومة الناس وبناء قدرتهم على إنتاج صوتهم والتعبير عن هويتهم، ومحركاً "للتأثير والفاعلية" عبر تعميق مجالات التعبير والقول. فالتربية المنخرطة في سياقها الاجتماعي الثقافي هي ليست أداة معرفة فحسب، بل فعل وانخراط حقيقي في التحول الاجتماعي والتحرر السياسي، وانخراطها يبدأ من تجاوزها لحيزها التقليدي "التلقيني" المعلوماتي السلطوي، لصالح تربية تتمحور حول بناء حيز تفاعلي يمكّن الطلاب من بناء فرديتهم، واستكشاف المعاني المتعددة للحياة والمعرفة والتاريخ، وتطوير قدراتهم على النقد والتعبير والتخيل والتأثير، ما يحوّل التعليم من عمليات نقل معلوماتي إلى انخراط في استكشاف المعنى وتأكيد الذات وقدرتها على التأثير والتغيير، وانخراط في المشروع المجتمعي، وفي كتابة نصه التاريخي، فالتربية بمعناها الثقافي السياسي هي سياق اجتماعي متفاعل لبناء الأفراد، الذين يبنون نصهم الذاتي في تفاعله الجدلي "تناصه" مع النص الاجتماعي، عبر الاندماج في حركة عصرهم التاريخية.

وبما أن التربية فعل ثقافي اجتماعي، فإن عليها في سياق كالسياق الفلسطيني أن تنحاز للحياة، وتعمل على تقديمها في إطار حالة حركة، حركة تعي دورها التاريخي وتشتبك مع أسئلة الحرية والمجتمع والتاريخ، وهذا ما دفعنا إلى تقديم هذا الملف الذي يتعاطى مع الفعل التربوي بوصفه مساهمة في الجهد الفلسطيني الساعي لبناء الذاكرة وكتابة التاريخ، ضمن منظور جديد؛ منظور التاريخ الاجتماعي الثقافي، ودراسات التاريخ من أسفل، لتعميق الهوية الفلسطينية وإعادة إنتاج الرواية التاريخية الوطنية وبناء حبكتها التاريخية، بوصفها رواية الناس في فعلهم الاجتماعي، ورواية المقاومة التي تؤكد فاعلية الناس وقدرتهم على التأكيد الذاتي من جهة، والفعل في العالم والتاريخ من جهة أخرى.

ففلسطين عنوان عالمي ليس في السياسة فحسب، بل في المعرفة والتاريخ، لدرجة يمكننا فيها أن نقول: قل تعريفك لفلسطين وسأقول لك من أنت، وما مصادرك المعرفية، وما خلفيتك الأيديولوجية، وأين موقعك من مسألة الحرية. وبالتالي، فالانتماء لفلسطين هو قضية معرفية وسياسية وإنسانية، وهو رؤية ثاقبة لموضوعات الحياة والسياسية، فأن تنتمي لفلسطين يعني أن تنتمي لنظرية المعرفة الأكثر جذرية، وأن تؤمن بالعدالة والحرية، وأن تعي حركة التاريخ كسيرورة إنسانية نحو الحرية، وبالتالي ففلسطين هي خطاب معرفي ضد الخطاب الاستعماري التوراتي الأسطوري اللاتاريخي، وهي حالة بحث ضد التلفيق العنصري والفبركة الغيبية للتاريخ، وحركة نضال من أجل عالم أكثر عدلاً وإنسانية، وهي مسألة انتماء للمضطهدين والضحايا، ففلسطين "صندوق رنين" لأنات الهنود الحمر والأفارقة والآسيويين وفقراء أوروبا، ما يعني أن فلسطين بوابة معرفية وسياسية للكفاح الإنساني ضد منطق القوة لصالح قوة الحياة.

وبما أن التربية هي فعل الإنسان مع الإنسان لبناء موقف من الحياة، ودفع قدرات الإنسان على التأثير والإبداع، فإن على التربية في فلسطين أن ترتبط بالمشروع المجتمعي الفلسطيني، وتكون رافعة ثقافية له، وأن تتحرك بين حدي التحرر الوطني والحرية المجتمعية، ولذلك فإننا تناولنا في الملف ما يغني التربية ويفتح مسارها على الحكاية التاريخية الوطنية ومحورها الأول الذاكرة الشعبية والتاريخ الاجتماعي، بشكل يسهم في تحقيق سياسات الهوية، وهذا ما جعلنا نفسح حيزاً لموضوعة الهوية ومعناها وأهميتها في معركتي الحرية والتحرر، حيث مسألة الهوية نقطة مركزية في مشروع الكفاح الفلسطيني ضد ما تعرض له من مشروع محو سياسي وحضاري، ولكن ذلك يجب أن لا يسقط التمايزات الاجتماعية، فأهمية الهوية الوطنية ودورها في بناء الحبكة التاريخية يجب أن لا يهمش موضوع الطبقات المهمَّشة وكفاح المرأة وقضايا الإبداع الثقافي والاختلاف الفكري، ومسائل البيئة والفن والجمال، ما يوفر فرصة لإعادة النظر في التعليم، وأشكاله، وموضوعاته المعرفية، وموقعه في الحياة ومنها، ويساهم في الدفع باتجاه تعليم يحقق تكاملية المعرفة، وصلتها بالحياة، ودورها في بناء الفرد، ودوره في نقدها ومساءلتها، ويفتح التعليم على المحادثة والحوار والنشاط الحسي والفعل التخيلي، ويوظف قدرات الطلاب على التعبير والاستكشاف والبحث، بشكل يجعل كل حصة كشفاً واكتشافاً، مغامرة وتجريباً، ويجعل من أي

موضوع فرصة للاستبصار في العالم وبناء موقف ورأي، وهذا كله لن يحدث إلا ضمن تعليم يستند إلى فلسفة جذرية تضع المدرسة في صلب الحياة، وتعطي للمعلم والطالب دور الصانع المشارك في إنتاج المعنى والتاريخ، هذا فقط يمكنه أن يجعل من كل درس مساحة لتفاعل المعارف المختلفة التاريخية والأدبية، الجغرافية والعلمية . . . الخ، وورشة عمل يحضر فيها الخيال والحس، والأدوات المادية والأفكار والقيم في سياق التعليم كمشروع مفتوح على أسئلة المعرفة وهواجس الحياة ومقتضيات الهوية والمقاومة والمواطنة.

وفي ضوء الفهم السابق، القائم على فهم التربية كعملية للتفاعل الإنساني، لتعميق قدرة الإنسان على التأثير والتغيير، عبر زيادة قدراته في التعبير والفعل، ومقاربة التاريخ بوصفه خيارات الناس ومقاومتهم لظروفهم لتحويلها بما يخدم تطلعاتهم المستقبلية، ويلبي احتياجاتهم للتعريف والهوية والوجود في التاريخ، فإننا ارتأينا للملف أن يحقق جملة من الغايات، منها:

1. بناء التقاطع بين التربوي والسياسي والاجتماعي.
2. الجمع بين مواقع الذاكرة وأحداث التاريخ.
3. وضع روايات الناس في صلب التاريخ الوطني.
4. تحدي الخطوط التقليدية للطبقة والجنس والأمة.
5. إعادة وضع الشخصي والعياني والتفصيلي في قلب الرواية الوطنية العامة.
6. الاعتماد على مصادر التاريخ والمعرفة المتعددة: الوثيقة، الرواية الشفوية، الصورة، الفيلم.

وفي هذا الإطار، عمل الملف على كشف الإمكانيات الثقافية والمعرفية لحكايات الناس ورواياتهم الشفوية ودورها في إعادة كتابة التاريخ الفلسطيني، "فالناس -كما ترى روز ماري صايغ- هم مؤرخون محتملون"، يمكنهم أن يعوضوا النقص في الوثائق والأرشيفات. ومن هنا جاء التركيز على "الرواية الشفوية" بشكل عام، وروايات المهمشين اللاجئين والنساء والأطفال بشكل خاص، من أجل العمل على إدراجها في قراءة التاريخ الفلسطيني وتعليمه، ولفت نظر المعلمين والمعلمات لأهمية هذه الروايات التي تجمع الذاكرة وأمكنتها بالتاريخ الرسمي وأحداثه، فتعطي للتاريخ عمقه الحيوي.

وعملنا أيضاً على الكشف عن الدور المبرمج الذي لعبه العدو لتغييب الفلسطيني عن مسرح الرؤية والصورة، لجعله أسير حالة من التلاشي والغياب والإسكات "لصناعة الفلسطيني كحالة غير مرئية وصامتة ومصمتة"، ما يعني أن على التعليم الفلسطيني أن يبدأ من إطلاق الكلام الفلسطيني كمقدمة لكسر قاعدة الصمت، ومواجهة حالة التغييب. تلك المواجهة التي بدأها الفلسطيني منذ اليوم الأول في الانتفاض ضد قدر التشتيت والاستعمار والإبادة، عبر إطلاق ممكنات الحياة في مواجهة صناعة الموت الصهيونية.

وقد عالج الملف موضوعات هي في صلب قضايا المعرفة، مثل: مسألة التاريخ والتأريخ، سوسيولوجيا الهوية وسياسات الذاكرة، التربية والثقافة والسياسة، الرواية الشفوية والتاريخ الرسمي، الصورة والكلمة والمقاومة . . . الخ، وهي أيضاً أسئلة التربية ومقومات المشروع الوطني. ولم يقف هنا، بل نوَّع في المواد والأدوات: وثائق وصور، روايات شفوية وأفلام، وكأنه دعوة لفتح التعليم على المصادر المتعددة وعلى أسئلة الحياة وانشغالات السياسة ومتطلبات الهوية، لجعله في النهاية مساهمة في صناعة الحرية وكتابة حكايتها التاريخية.

من ورشة "تحريك الرسوم" التي نفذها الزميل كفاح الفني مع مجموعة أطفال من مخيم الجلزون